

## الجاحظ

### في مقالة « الفلسفة والالهيات »

للأديب محمد طه الجاحري

جاء في المقالة التي نشرتها (الرسالة) عن « الفلسفة والالهيات » مترجمة عن الأستاذ الفرد جيوم ، بقلم الأديب الفاضل توفيق الطويل عبارة مروية عن شيخ الكتاب أبي عثمان الجاحظ في صدد الدعوى بأن مرد الفلسفة العربية في مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التي غزاها العرب ، وأن المعين الذي استقوا منه مذاهبهم هو الفلسفة اليونانية .

والذي يجب التنبيه اليه أولاً هو أن هذه العبارة مروية بالمعنى ، بل بأصل المعنى ، لا بالنص الذي كتبه الجاحظ ، والذي لا ينبغي أن يعدل عنه أو يتسامح في إرادته ، إذا كنا نلتزم الأسلوب العلمي « الجاسي » في البحث والاستشهاد ، ولا سيما حين يكون النص المروي من ميراثنا الأدبي ، ردّ البناء ، وورد في سياق عربي وموضوع عربي ، ثم كان بعد ذلك لأمام من أئمة الأدب العربي . أما أن يترجم النص إلى الإنجليزية ، مع ما تستلزمه طبيعة الترجمة من اضاف المعنى واختفاء بعض خصائصه ، ثم ترجمة هذه الترجمة إلى اللغة العربية ، فصنيع غريب من شأنه أن يهمل المعنى وينهك ، حتى لا يبقى منه في العبارة المنقولة إلا ظل خفيف تامل . ولقد عرض الجاحظ نفسه لهذا المعنى في كتابه « الحيوان » في سياق كلامه عن الترجمة وخصائصها ولكن وزر هذه المخالفة للأسلوب العلمي لا يرجع ، فيما نحسب ، إلى المترجم الفاضل بقدر ما يرجع إلى ضعف الروح الأدبية العربية التي تركت الجاحظ — وهو شيخ الكتاب وأمير البيان العربي بلا منازع — مغمور القدر مجهول المكان ، وترك ما أبت عليه أحداث الزمن من ذخائر كتبه — وهي طرف فنية لا تكاد تظهر المكتبة العربية بما يناظرها — وكأنها هي كتب ألفاظ وطلسمات من كثرة ما منيت به في نشرها من تحريف وتصعيف وخرم وتشويه وسوء طبع وفساد كبير أما أصل هذه العبارة المترجمة فهو — فيما نرى — ما يلي :

( ماخوذاً من كتاب الحيوان ، الجزء الأول ، صفحة ٤٢ ، ٤٣ في أثناء الفصل القيم السنتيفس الذي كتبه الجاحظ في فضل الكتب والترغيب في اصطناعها )

« ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدر كنا ما لم نكون نذكره إلا بهم ، لما نحن حفظنا من الحكمة ، ولضعف سبيلنا إلى المعرفة »

أما الاستشهاد بهذه العبارة التي سبقت في فضل الكتب على تلك الدعوى المريضة التي يبالغ الكاتب فيها ، والتي يزجها الهوى وتصوغها العصبية ، فاستشهاد ضعيف مهات كما ترى ، فليس فيها إلا ما بقوله كل ناظر في تاريخ العلم من أنه حلقات متصلة مترادفة ، يكمل لاحقها سابقها ، وينبني آخرها على أولها ابتداء الحاضر على الماضي ، في جميع مجالات الحياة وفروع المعرفة ، وإن كتب الأوائل هي التي أوجدت هذه الصلة ، ومهدت للفكر العربي سبيله

على أن هذا الاستشهاد غريب من ناحية شخصية الجاحظ ، فانه من المثل القوية التي تبين إلى حد كبير بروز الشخصية العربية في عالم المعرفة ، واصطبغها صبغة مستقلة . وبلاحظ قارى كتابه الحيوان أنه كثيراً ما ينقل عن صاحب النطق بصيغة التمرىض : « وزعم صاحب النطق » ويعقب عليه أحياناً بعبارة يتبين فيها اعتداده بنفسه ، إذ يقول مثلاً : « وقد سمعنا ما قال صاحب النطق من قبل ، وما يليق بمثله أن يخاد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء »

أمثل صاحب هذا الأسلوب الشامخ بنفسه يزج في معرض الاستشهاد على أن الفلسفة العربية ليست الا صورة من الفلسفة اليونانية ، مشوبة ببعض الفلسفات الفارسية والهندية ١٢

وبعد ، فنرجو ألا يحسب أحد أننا نقض بهذه الكلمة العاجلة ، وبهذا التعقيب على صورة من صور الاستدلال من القيمة العلمية لكتاب « تراث الاسلام » الذي زجوا أن نرى فيه صورة من صور البحث الدقيق إن شاء الله

محمد طه الجاحري